

الفتى

٥١٠٣٥٢

صحة اديبة اصلاحية . و مرآة جزء من حياة شاب يسعى لاعزاز شعبه وترقية امته

(بقلم)

* (رمضان حمود بن سليمان) *

الميزابي الجزائري

لطف الله به

الحاج اسعيد محمد بن ايوب
غردايت ميزاب
HADJ-SAID M^{ca} Ben Youb
GHARDAIA M'ZAB

جهودك يا فخر العروبة عبرة * لها رنة في الخافقين تـ^{قام}
ستبقى على مر الدهور منارة * على علم لا يعتريها ظلام
ففي سعيك المبرور خدمة امة * عليها خطوب يرتبين جسام
حياتك سر سوف يظهر كنهها * وفيها لسير الناشئين نظـ^{ام}

(المرحلة الاولى)

حقوق اعادة الطبع محفوظة للتأليف



المطبعة الاهلية نهج الديوان عدد ٥ تونس

١٩٢٩ - ١٣٤٧

1837

* الاهداء *

الى من كان السبب في وجودي !

الى من ربياني صغيرا ومد الي يد المعونة كبيرا !

الى من غمرتني نعمهما وطوتني ايامهما !

الى من برضاها ينشرح صدري وينطلق لساني ! ويقفه قولي ويشمر عملي !

الى من يجب ان اخفض لهما جناح الذل من الرحمة !

الى ابي وامي !!

اهدي قصتي هاته كباقة زهر عيبرها الاعتراف بالجميل والاخلاص النهائي

ولذلك البار : رمضان حمود

اخذ الله بيده

وما اردت بها إلا الاصلاح

القصة عامة لم اقصد بها شخصا معينا ولا وطننا خاصا وكل ما ورد فيها من

الاعلام هو مجرد تمثيل وتنسيق . وان كانت مصبوغة بلون بلادي ومرقدة اجدادتي وان

صاحبها عاش حقيقة ولم يزل يذب عن حقوق امته فان العبرة بحوادثها لا غير .

هذا ما اوحاه الي ضميري وهذا ما ارجو ان يفهم وعلى الله قصد السبيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

* نشأته *

في قرية من قرى ميزاب الجميلة نشأ طفلا صغيرا يرتع ويلعب في حجر ابي بن
كريسين يحبانه حبا عظيما ويفتتنان به . ولا عجب فهو نور بصريها وثمرة فؤادها والزهرة
الباسمة في رياض حياتهما والصلة المتينة بينهما .

وكانا لا يرجوان له الا حياة العلم لما اصاب تلك البلاد من الجهل والانحطاط
فهما يذللان كل صعوبة ويجتازان كل عقبة في سبيل تلك الغاية المقدسة وذلك المطلب
الشريف .

كانت امه تغرس فيه الفضيلة وحب الوطن من صغره فشب على ذلك وترعرع .

فاذا هزته في مهددة او رفعته بين ذراعيها انشدت له اياتا تروضه بها فتقول :

يا بني عيش بين الانام عزيزا * لك روحي ومهجتي وفؤادي .

بذراعي احبك طفلا صغيرا * سوف تحمي اذا كبرت بلادي

وبصدري اضم جسمك حبا * ستعلم الفخار بين العباد

انت في المهد لا تطيق كلاما * عن قريب اراك في كل نباد

ترشد القوم اذ نسوا كل مجد * وتريهم بالعلم سبل الرشاد

انا اسقيك للنمو حليبا * سائقا شربه نكن للجهاد

وتذكر عند الشدائد أما * ان تأخرت طوقت بالقتاد

أنا في سبيل الله
أنا في سبيل الله
أنا في سبيل الله

هكذا كان شأنها معه حتى حبا ومشى واشتد ظهرت غريزته الحيوانية من الميل الشديد للعب وبات وهو الصغير سيد الدار وملوكها المطلق ينقض ويهرم ولا يخالف امره احد . وكان لا يهيمه من شؤون الحياة ومظاهرها الا التمتع التام بجميع حواسه الظاهرة والباطنة بجمال الكون وبدائعه فكانه يعتقد ويرى ان الطبيعة ام ثانية له تحبه وتحن اليه .

وقبل ان ينشد الطير قصيدة الصباح على مسمع الكون يقوم من فراشه بجانب جدته (لايه) ويخرج من الغرفة الى فناء الدار كما تخرج الوردة الصغيرة من كمها لاستقبال ندى الفجر الباسم . فيغسل وجهه ويديه ثم يرجع الى جدته فيعلمها بان الديك - الذي كان يحبه كاخيه - له مدة وهو يزق . فتجيبه وتقوم لصلاتها وان كانت متيقظة من قبل تسبح وتستغفر الله على ما سلف من ذنوبها وتطلب من الله تعالى ان يصلح حياة حفيدها العزيز وان يفتح له باب المستقبل السعيد .

ثم يقصد غرفة امة فيخبرها ان اوان الصلاة قد حان فتنهض لعبادة خالقها بكل هدو وسكينة فيقوم على اثرها ابوه فيؤدي ما فرض عليه وكذلك كل من في الدار ذكورا واناثا يعبدون ربهم ولا يشركون به احدا

وفي اثناء ذلك يجني تحية مباركة كل من اتم فرضه فيمشون ويبشون في وجهه سائلين الله ان يحفظه ويلهمه الدين والتقوى حتى يسن على سنن ابيه واجداده الهادين المهتدين .

وبعد ان تهيم امة له الفطور وياكل ما قدر له بكل ادب تلبس له ثيابه وتنظفه احسن تنظيف محتبة كل تنسيق زائد (وكان التكلف في الملبس والمطعم بعيدا عن اهل تلك القرية المباركة وتغاب عليهم البساطة والسذاجة في جميع مظاهر حياتهم لان طبيعة ارضهم اقتضت ذلك فهم لا يميلون الى البذخ والاسراف ومعيشتهم ريفية

اكثر منها حضرية وان كانوا يسكنون الدور الجميلة الا ان معظم عمرهم يسيل في الواحات والبساتين بين الاشجار العاليات والنخيل الباسقات يسقون ويربون ويحراثون ويزرعون .

وقبل طلوع الشمس من مشرقها يجيء جد محمد ومعه آلات السقي على دوابه وهو رجل فلاح صحيح البنية تام الحواس طيب الخلق طاهر النفس لا يكسب من غش المدينة وفسادها قطميرا . همه الوحيد ان يرتق من عرق جبينه وكد يمينه ويربي اولاده تربية دينية خالصة في حقوله وجناته الواسعة لا تحت سقوف الجامعات ولا بين جدران المدارس

يحمه جده امامه على ظهر دابته فيقصدون الواحات تاركين الركود في الدور كما يقول اهل تلك البلدة - للنساء ومن يشبهه بهن . فيقضي بياض نهاره في الهواء الطلق في غابات جده وان كان لايه امثالا او اكثر الا ان العادة جرت في تلك البلدة ان الطفل اذا كان عزيزا وازيدا ان ينجب تركوه مدة طفوليته الاولى تحت رعاية وكفالة جده يغرس فيه من الفضائل وهو الشيخ الكبير ما اوحته اليه التجربة والايام الطوال اذ قد ربي وتقف اولاده الكبار قبل ان يصل اليه حفيده وصهاره عظمه

عند ما يصل الحقل لا تسكن حركانه ولا تراه جالسا على الارض الا نادرا فينمنا هو يتسلق جذع نخلة ويتكبد المشاق الى ان يبلغ رأسها اذا هو يحفر بئرا صغيرا يسقي به بستانه الجميل ولا يترك شيئا يفعل جده الا ويحتذيه ويأتي بمثله على قدر طاقته وفي بعض الاحيان لا يروق في نظره عمل جده فيفسد ما فعل ويعبده على ذوقه من تبديل وتغيير وزيادة ونقصان في غيظه عن المكان ولا يصيب في كثير من الاوقات ولكن على كل حال كان يرى ان له نصيبا من التفكير الخاص امام فكر جده واستنباطاته فاذا جاء جده ووجد عمله ذهب ادراج الرياح سأل ما الذي لجأ بك الى هذا يا محمد

فيجيبه فوراً : « انك يا جدي لم تات شيئاً متقناً والعمل قد شكى الي في غيتك ان اعيدة ففعلت وليس علي حرج !! » فيرجع ما افسده الى ما كان وهو يتمتم في نفسه : « والله ما رايت فلين ربيت مثلك يا محمد فذكائك نادر ونفسك طماحة وحديثك حلو !! » وكثيراً ما يحكي ما رأى من حفيده الى زوجته اي جدة محمد فيزيدان له جبا على حب .

ولم يكن يرافقه كل يوم الى حدائقه ففي بعض الايام يتركه في البلد بجانب امه فتري منه العجب العجائب وقد يعوقها عن الشغل فتضطر بعد الصبر الطويل لارساله الى جدته لانه كان يخشاها ولانها كانت تتحمل منه اقتراقاته اكثر من امه - ولا يخفى ما للكبير على الصغير من مزية في الصبر والرزانة -

انه يحب امه حبا جما ولكن اذا ساعدته ووافقته على احلامه وامانيه اللذيذة واما اذا وقفت في سبيل رغائبه الحلوة فيراها بالعين التي ترى منها الزهرة الباسمة الخليلد النازل من السماء الذي يريد القضاء عليها

على ان امه الشفوقة كانت لا تنهائ الا عما يضر به وهو لا يدري للضرر معنى وانما الدم الحار الجاري في عروقه الرطبه يبلي عليه فصولاً جميلة يرى من الحق تمثيلها للبيان وتنفيذها في الخارج بغير فكر ولا قيد

ان امه تحبه وتسهر على مصالحه في كل آن وفي بعض الحالات يظهر انها تتألم منه لميله الى رايه الخاص ميلاً شديداً اكثر مما يمثل لاوامرها - فكانه يرى منذ صغره ان المرء لا ينجح في حياته ولا يبلغ غايته الا باتخاذ رايه خاصاً تزده قريحته الوفاة فان اصاب المرمى فذاك وان اخطأ فالتجربة تربيته وتغذيه .

تنهائه عن الصعود في السلم خوفاً السقوط ولكنه لا يمثل فيسقط وربما جرح فتواسيه ثم تؤنبه بعد ذلك فاذا غابت عنه كرر فعلته الاولى ناسياً ما مضى او متعمداً

فلا يلبث ان يسقط فتاتي امه مرة بعد اخرى مربية له فيجيبها وقلبه مملوء بحب ما يصنع وغير مبال بما يحدث : « اتركيني ! اتركيني ! اصعد يا امال ! فالجرح يبرأ ويلتئم !! » فتارة لا يسعها الا الرضوخ امام رغائب ابنها العزيز وطوراً تمنعه بالزجر ولكنه لا يلبث ان يقترب شيئاً او حته اليه رأسه الطائرة في سماء الاحلام ولم يخطر ببال اييه او امه فاذا لم يجد شيئاً امامه يتسلى به قام الى الهرة المسكينة وجذبها بعنف وركب فوقها او جرديلها فاذا ثارت تلتطف معها (مدركا بعين رأسه ان القوة والعنف لا يفيدان ولا يجران لصاحبهما الا الهلاك والوبار) فتراه يداعبها كأن يلقبها على ظهرها او يرفعها بين يديه او يحك رأسها (هكذا شأن القوي الجبار مع فريسته اما ان يستولى عليها بالبطش والقوة وهو نادر او بالدهاء والمكر والخديعة) ولكنه لا يسلم من شرها دائماً فكثيراً ما تنتقم لنفسها بنفسها فتفلت من بين يديه القاسيتين وهو ينتحب ويكي لما اصابه من مجرح بمخاب او عضه بناب . لا يتأسف ولا يندم على ما فات لانه قضى وطرة منها فاذا نال ما نال فانما هو عما اسلف من لعب وفكاهة - اذ المرء لا يدال ما يريد ويشتهي الا بعد الصبر على المكاره وعدم الخوف مما يعتريه في سبيله من الالم -

وكان شغوفاً بسماع الحكايات والخرافات التي ترويها بعض العجائز لتسلية الصغار وتثقيفهم في بعض الاحيان الا انه لا يعبر مسنعه وفكره الا الى ما كان موضوعها ذكر الشجعان والابطال والحروب يسمع الحكاية في الليل من جدته واذا أصبح الصباح سمى نفسه يطل من ابطالها وناذى اصحابه فاملى عليهم ما سمع وسار بهم في حديثه الى امد بعيد من التصورات والخيالات فما تراههم الا ملتفين حوله خاشعين منصتين كان على رؤوسهم الطير لما يبدية من تجمن وتصوير خلاب . وقد ينظم منهم جيشاً ويسير به الى مقارعة عدو وهمي او يفرقهم الى كشتيتين فتتصادما وتتقارعا وهو

في أثناء ذلك البطل المغوار !! والقائد العام المحرك للميدان !!
ومن هنا نرى من الواجب على الامهات ان اردن العظمة لاولادهن وافلاذ
كبدن ان لا ينفثن في عقولهم سموم الخرافات المضرة بالاخلاق والتربية والعقل بل
يتحتم عليهن ان يروين لهم ما يتفقهم ويفرس فيهم روح الفضائل والمكرمات كتاريخ
العظماء والابطال وفي مقدمة ذلك تاريخ وحياة سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد
بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .
فالدرس الذي تلقيه الام بلغة التسلية لولدها عند نعومة اظفاره هو الذي يقود
زمام حياته في مستقبل عمره فلتختر الام ما يحلو والعاقول من تبصر في العواقب ونظر الى
ابعد الغايات .
لم يكن محمد رغم ما اسلفنا من حبه الزائد للعب يعصي امه فاذا بعثته الى قضاء
بعض الحوائج وهو قادر عليها قام بها احسن قيام بامانة واخلاص ونشاط ثم هولا
يتردد لحظة واحدة في قبول ما تعطيه من الارشادات والاخلاق كان يقول له لا تلعب
في الطريق مع ابناء السبيل ولا تتكلم مع من هو اكبر منك سنا واذا رأيت جماعة من
الناس ملتفين حول بعضهم فلا تمرر من وسطهم وسلم عليهم واذا رايت شيخا كبيرا
او اعمى وضل عن الطريق فاهده بكل لطف الى السواء ثم اقبل الى غايته بغير تراخ
ولا فتور واذا وصلت الى من بعثتك اليه فلا تدخل منزلهم حتى تستأذنه فان اجابوك
فسلم والا فارجع . اياك وقبول العطايا مهما كانت ومن اي شخص كان ومن قال لك
شيئا فساخبرني . وكان اذا سمع هذا الحديث همه كثيرا فيطاب من امه ان بعيدة على
سمعه خشية النسيان فتجيبه لذلك . فيفسر ويشرح ويعاق وقد يغلط في بعض
المواضع فتنبهه فيرجع ولكنه اذا احس انها تشددت معه في الجزئيات الضئيلة قال لها :
« اتركيني اكمل حديثي يا امه فانا اعرف كل شيء وعقلي اكبر من دارنا . »

سالت حياته الاولى على هذا المنوال في جداول الصبا تحفها عناية الخالق
والوالدين الى ان ناهز السادسة من عمره طارت اليه اول شرارة من جهنم الحياة
فاخرج من نعيم بلاده حيث امه واقرباؤه الى ارض الغربة والمحن فهذبته وصيرته
شابا يعرف من اين تؤكل الكتف .

* سفره *

ففي ذات يوم بينما كانت امه تنظفه وتلبس له ثيابه يقول لها : « انا لا احبك
يا امه لانك تمنعيني من اللعب بما شئت وفي اي وقت اردت . » فتجيبه : « كيف
لا تحبني وانا احبك كثيرا » - انت تحبيني لانك رايت ابي يحبني ولانك تضربيني
وانا لا ضربك . وهنا تدفعه بلطف قائلة : « فانا اذا لست امك فقم واطلب اما غيري »
فيلصق بذراعيها ويجذب راسها اليه ويقبلها والعبرات تسيل على وجنتيه الموردين
قائلا : « لا لا اسمحيني يا امه انت لي وانا لك كل شيء انت احبك اكثر من فرسي
وبستاني ومن كل شيء يملكه ابي وجدي فاذا مت مت معك ولا اتخذ اما غيرك !! »
فتبكي لهذا الاحساس الشريف والحب الصادق وتخفي دموعها بهارة خوفا من ان
يطلع عليها فتكدر صفوه وهذا ما لا تتحماه .

ولكنه كان ذكيا فتقع في شركه اذ يسألها - لماذا تبكين يا امه هل اصابك
مكروه - لا !! - ولماذا اذا ؟ - لا اعرف - اجيبيني يا امه فاني لا اقوم من حجرك
الا بعد ان اعرف سبب بكائك - دع عنك هذا الشأن فان فرسك وسيفك يدعوانك -
ان فرسي يدعوني اذا علمت ما جرى لك - يا بني ابكي لانني احبك - وهل الحب
يبكي يا امه ؟ - نعم - انا لم يطمئن قلبي لذلك - ولماذا ؟ - لانني اراك تبسمين اذا
ضمتني الى صدرك وهذا كما اعلم غاية الحب

وهنا اذا ذكر لها الضم والحنان لم تتمكن من كبج جماح نفسها فيفور بركانها

وترسل من الدموع مدرارا حتى تقع على وجه ولدها البائس فتصحب نحيبها الاليم بكلمات متهدجة متقطعة : « لا اقدر ... لا اتحمل ... فراقك ... يا قرّة عيني ... وثمرة فؤادي ... الموت اهون علي من ذلك ... !! »

يرى تلك المأساة تمثل امامه وهو جامد صامت لا يفهم منها الا ما كان باديا على وجهها من نحولة يخالطها شيء من الاصفرار الذي لم يعهده قبل في وجه امه الباسم ولما شعر بدمعة تترجرج في مقلته شفقة على امه خجل من ابدائها خوفا من اظهار الضعف لها (فالهمة وهي رأس ماله كانت ترفعه وهو صغير عن مواطن الضعف حتى مع اقرب الناس اليه واعلمهم بخفاياها . وتلك شيمة النفوس الكبيرة فان العظمة مزروجة بها منذ الحداثة)

وامه لم تزل تمنع النظر فيه وتتهد تنهدات متوالية حارة يذوب لها قلب الجداد . ولكنه لما رأى الموقف قد انقلب الى مأتم غريب وبكاء ونحيب قام مسرعا الى فرسه الخشبي وامتطى صهوته وطفق يدور في الدار وينادي : « قولي يا اماسه من مسك بسوء لا تنقم منه انتقاما مرا واعذبه عذابا شديدا . انا احبك من شراولئك الذين يكفرون حياة الناس ويفسدون عليهم عيشهم . ان هذا الظلم عظيم . قولي فالمسؤولية راجعة علي وعلى هذا الفرسان ان لم تري منا العجائب .. وامه لا يجيبه ولا تلتفت اليه بل ما زادها ذلك الالها على همها الكامن واسترسالا في بكائها الاليم

وبينما هو في تلك الحالة ضوضاء قائمة الى عنان السماء وكروفر وزمزمة وهدير اذ دخل عليه ابوه فما انتبه الا وهو محمول بين ذراعيه فقال له : « ما ببالك يا محمد ؟ وما هاته الجعجة ؟ - اتركني يا ابتي فاني اقوم بواجب هام - يا لك من بطل مهذار فما هو هذا الواجب ؟ - واجب يهمني ويهمك اتركني فان الفرصة ربما فاتتني - ما ذا تقول ؟ - ان فرسي على وشك القرار - لا باس دعه يفر - قلت لك اتركني فان شئت

استفسار امري استأذنت امي في ذلك - افعل ما بدا لك . وهنا يطلقه ابوه فيرتمي على صدر امه قائلا : أ أخبر ابي انك كنت تبهكين ؟ - خيرة فاني بكيت عليك لانك ولد تحب اللعب كثيرا ولا تسمع نصائح امك . فيجمد في مكانه حياء وخجلا

ثم بعد ذلك يلتفت ابوه الى امه ويقول لها : ان اصدقائي ورفقائي عن لهم ان يسافر قبل الجمعة وهل جمعت اثاثي مع ثياب الطفل في الحقيبة الكبيرة كما اشرت ؟ فتجيبه بنعم تغمره العبرات حتى لا يكاد يسمع . وحينئذ يفهم محمد كل شيء ويرتمي على ابيه وهو يقول : يا ابتاه اني احبك اكثر من امي لانك ستحملني معك الى بلاد نائية حيث المسال والعلم ... وافرحتاه ... !! - ومن قال لك يا « جن » انك ستسافر معي - اني فهمت ذلك من خلال كلامكما - نحن لم نقل شيئا - اذا فانا اعرف شيئا تجهلانه انتما - حسن يا بني .

مضى ذلك اليوم الذي كان اسود على امه واتى اليوم الذي بعده امتلات الدار باقارب محمد فمن جدته الى جيرانه (عادة في تلك البلدة ان الاقارب من الجنس اللطيف يقصدون بيت المسافرين ويقضين يوما كاملا مع اهله لاعانتها على قضاء حوائج زوجها وتسليتها من هم ما تجد) .

كان محمد في ذلك اليوم شعلة تلتهب لا يستقر على حال فأونه بقبل جدته ثم عمته واخرى يسأل الباقيات عما اتى بهن فهو لا يريد ان يرى النساء لانهن لا يجتمعن الا على البكاء . اما امه فانه لا يقترب اليها لانه رآها خاضت في بحر من الهم لا ساحل له فتركها وشانها (هكذا بدأ قلبه يتحجر كانه كان يدرب نفسه على ما سيلاقى من كوارث الدهر وصروفه) ولكن امه ضاق صدرها فاحتالت له واخذته ووضعته في حجرها لآخر مرة فضمته الى صدرها وبكت عليه حتى كاد يغشى عليها وكانت في اثناء ذلك تشد اياها فتفتت القلوب :

غدا عند كرفجر تصبح نائيا * فتتركها بيننا وحدادا
 اذا بزعت شمس ولست بجانبى * ارى الصبح ليلا واليباض سرادا
 وان اضرم التفكير بعدك ناره * تضائل جسمي واستحال رمادا
 فسر ان هم البين عندي امانة * وقلبي له راع يصون ودادا
 وداعا وداعا يا بني الى القفا * ساجعل غم الصبر بعدك زادا
 بكيت فغار الدمع قبل تجلدي * فيا رب ان الدمع عاد جمادا
 فما طالع فجر ذلك اليوم حتى اصبح محمد وابوه في سيرة تذهب بهم الارض
 نهبا قاصدين مدينة من مدن التل الجزائري حيث محل تجارتهم ومنبع ثروتهم التي
 منها يعيش ذلك الوطن القاحل من كل شيء الا من الدين الخفيف (رغم ما يجلبه اليه
 بعض ابنائه الخائنين من مفاسد المدنية ومضارها التي انهكت قوى الاسلام في انحاء
 المعمور وتركته لقمة سائغة للقوي القشوم انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة
 الا بالله العلي العظيم)

مضت الايام تلو الاخرى وذكرى محمد لم يزل متمكنا في قلب امه وكانت
 لا يهدأ لها بال ولا يطيب لها مضجع . فتارة تروح على نفسها بالدموع الغزار وطورا
 بقاذف آيات من صدرها المتأجج حتى يكاد يلتهب ما حوله ومما يروى عنها هاته النفقة
 سئمت حياتي بعد فقد محمد * فيا ليتني من بعده حبر صلد
 فان بيننا فلذة من قلوبنا * اذا ما شكى بعض تداعى له الند
 قيارب كيف العيش والقلب غائب * ويارب كيف الصبر اذ خطب الوجد
 فيا حر قلبي انني اليوم ناكل * وان كان حيا من له الحب والود
 ابيت على جمر وفي النفس لوعة * ويشهد سقمي والتدله والسهد
 فيا ما امر العيش بعد فراقه * كان نجوم السعد بعده لا تبدو

اعلل نفسي بالنسي وانيرها * بنور رجاء عل يجمعنا العقد
 الا ان يوم الضعن سم وحنظل * ويوم التلاقي من حلالوته شهد
 فصبوا جيلا ايها الامهات البائسات اللواتي تخطف اولادهن من بين ايديهن
 كما تخطف زغب الحواصل من عشاها او كما ينتزع الكس البارد من يد الضمان . ان
 الرجال لا يقصدون بذلك تنغيص عيشكن وتكدير صفوكن كلا ولكن الضرورة
 احوجتهم الى ذلك ودفعتهم الى ارتكاب ما يكرهون . نعم ان اولاد غيركن يعيشون
 مع امهاتهم جنبا لجنب ولكن ما الحيلة والله اراد ذلك ولا مرد لقضائه يحق لكن ان
 تبكين وتنتجن على افلاذ اكبادكن ولكن لا الى درجة ان تسخرن على القدر والدين
 راس ما لكن وحافظ مركزكن في العالم كله ولا فخر فانتن العفيفات الطاهرات القانتات
 فكن الصابرات الراجعات الى الله في امر اولادكن فغيركن يتمتع بماء الحياة وحيه فلا
 يغركن ذلك وانتن السابحات في لجة الفضيلة والدين . فما في هاته الدنيا يفنى ويضجل
 وما عند الله في الآخرة باق لا يزول

* (دخول المدرسة) *

في هاته العقدة من حياة محمد انتقل من دور الى دور اما الاول فكانت ترعاه
 وتعهده الام وان شاركها الجد والجدة كما اسلفنا ولكن القسط الاكبر راجع اليها وحدها
 دون سواها
 اما الثاني فسينيط بهمة الاب والمدرسة وهذا الدور من اهم ادوار الحياة وواقع
 في عقله الانسان لان ذهن الصغير الى ذلك الوقت خال من كل شائبة لم يفسده شيء
 بعد فهو كالمرآة الصافية بطبع عليها كل ما يراماها (والفضل راجع للام اذ صقلته
 وصيرته ارضا صالحة للنبات) .

وفي هذا الدور ايضا يظهر استعداد الفطري وقوة ادراكه وفيه يؤسس مستقبله فاذا كانت التربية صحيحة مبنية على قواعد المتينة وكان الاب مطلقا على نفسية ولده وعارفا بالصالح من الامور والمستقبل زاهر . واذا عكست القضية فالويل كل الويل للاب والولد والوطن .

فلما وصلا الى تلك المدينة واستقر بهما المقام وكان ابوه لا يهيمه الا الاعتناء بولده العزيز وثقة يهيمه على قدر الامكان لا يألو جهدا في تحسين حاله كلما وجد الى ذلك سبيلا وكانت تلك البلدة التي تضمهم ككل بلدة جزائرية بالطبع لا يوجد فيها الا مدارس فرانسية فيها يتعلم لغة الحكومة المحتملة لا لسان الوطنيين الاصليين . على انها لم تكن تفتح في وجه الاهلي التعس مدرسة نظامية باتم معنى الكلمة كالتي يغشاها ابناء الاجانب فان التعليم في تلك البيوت عقيم لا ينبت شيئا واذا انبت فالشوك والحنظل من سوء الاخلاق والتذبذب وعقوق الوالدين والخروج عن الجادة ووو.....!!

دخل محمد مكروها بحكم الضرورة في لجاجها غاضا بصره عن اوجاجها (اذا الشحاذ يقبل بغير نقد ما تجود به عليه الايدي فنحن اليوم شحاذون اذلاء فانقبل ما يعطى لنا بكل شكر حتى يقضي الله امرا كان مفعولا . اما اشتراط ما نجبه ونهواه فقد انقرض بانقراض دمشق وبغداد وقرطبة وناهرت) .

على ان العلم مهما كانت رداءته وضالته فالجهل اردأ واسوأ منه مكث فيها مدة ليست بالطويلة كان في اثنائها مثالا للنشاط والاعتناء التام فقد ارتقى من الفصل الرابع الى الاول في مدة لم تتجاوز سنتين جاعلا في كل فصل نصف سنة وكل فصل كان منقسما الى ربتين اولى وثانية .

باجتهاده وتوقد ذهنه احبه معلومة كثيرا فكانوا يوبخون اقاربه ممن نشأوا في تلك البلدة بقولهم : « انظروا الى هذا فانه انجب واحفظ لدروسه منكم وهو غريب عن اهله ووطنه وانتم المتمتعون بكل شيء »

ولكنه لم يتم معلوماته ولم يسر الى النهاية في ذلك الطريق فقد قطعت عنه وهي اشهى ما تكون اليه لاسباب يعلمها الآباء والمربون في وطننا المسكين بامثالهم هنا استوقف نظر الشعب لما يقتترفه بعض ابنائه من اللعب بمستقبل افلاذ كبدهم . يرى الرجل من هؤلاء الضعفاء ان الناس قد اقبلوا على العلم وان سوقه نافذة فيدلي دلوه مع الجميع ويرسل سهمه الى الغرض المقصود ولكنه ويا للخجل لا يلبث ان يتقهقر من الميدان لاغراض تافهة كلها لا تكون حجة على فعلته الشنعاء

ليست الغاية من التعلم ان يكون الشاب يحفظ بعض كلمات لا يفقه معناها او يطالع سفرا ولا يفهم الا السطحيات منه او يجبر رسالة لايه او امه يريها فيه جهله واستعداده للعلم وقبوله .

من الذي الجاهل الى خوض هذا البحر ايها الناس وانتم تعلمون انه خضم واسع الفجاج كثير الامواج . ولما قدر لكم ان تخوضوه فما بالكم لم تصلوا الى الشاطئ لتستريحوا من تلك الاهوال وتنجوا نفوسكم من شر الفرق انكم بهذا العقل المخالف لكل تشريع استلغتم انظار العقلاء وغيرهم اليكم فنظروكم بعين انتم تفهمون معناها رغم ما تظهرون من الطمانينة وبرودة الضمير .

ان اولادكم يا هؤلاء يكرهون عملكم ويتصورون من تهوؤكم وتهقركم انهم في حال يؤس يرثى له وهم مع هذا والعلم ينير زوية من زوايا قلوبهم لا يعصونكم ولا يخرجون من تحت ايديكم ولا يفهمون للعقوق معنى ولكن الكثير منهم يسألون الله ان يريحهم من عناء هاته الدنيا ويطلبون نعيم الآخرة .

اي حياة يرجونها مع علم ناقص فلو كانوا جهلاء لكانوا احسن حالا من اناس مذبذبين لا من هؤلاء ولا من هؤلاء .

يرون الجهال مجتمعين وهم في اسعد حال ظاهري فترفعهم هتهم عن مجاورة من

لا يجانسهم ولا يحفظ لهم الا ولا ذمة اذا اختلط الحابل بالنابل . ويرون العلماء في جانب آخر تحفهم العظمة والاعتبار فيكبو جوادكم دون الوصول الى غاية اولئك النجوم اللوامع فيبتلي قلوبهم بأسا وقنوطا .

ايها الاباء ارحموا اولادكم فانهم من جنس البشر يحسون كما تحسون ويتألمون كما تتألمون . فان لم ترحمهم ارحموا وطننا تعيشون فوق ارضه وتحت سمائه وتاكلون خيراته . فانه لا يقوم ولا يرتقي الا بهم وهم رجال المستقبل ورافعرا دعائمه . فكيف يعلو وطن ابناؤه جهلاء ؟ انكم ان دمتم في سير تكمل هاته فستركون بعدكم اناسا لا يرحمونكم ولا يشكروا نكم على ما تركتم من مال ومتاع الحياة فحاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا

* * *

ان ابا محمد لم يكن من ضعفاء العقول ولا ممن يتقهقرون امام النكبات والمصاعب بل كان يجب العلم من صميم فؤاده ويجل اصحابه ويسعى الى ان يبلغ ابنه اقضى درجة ممكنة فيه ولكن الظروف (ولها الحكم في كثير من الاحوال) لم تساعده دائما .

ولم يكن محمد مقتصرا على الفرنسية فقط بل كان يحفظ قسما من القرآن الشريف في اثناء تعلمه الفرنسية . تلقاه - اي القرآن - عن « مؤدب » على الطريقة القديمة المعروفة في جميع اقطار المسلمين تلك الطريقة الواهية التي تركت جلنا - وبالسلاسل - كالبيضاء يقرأ آياته البنات ولا يفهم مما يقول شيئا فكانه وهو المحمدي الصميم يتلو كتابا غريبا انزل على نوح عليه السلام

ان القرآن انزل لان يفهم ويعمل بمقتضاة ابتغاء مرضاة الله لا لمجرد التبرك والتلاوة والاستظهار

ان المسلمين ضلوا عن الحق لما عميت عيونهم عن اتباع ما جاء به القرآن وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فان ارادوا شيئا من عزهم القديم رجعوا الى تفهم القرآن الكريم وتدبر معانيه والعمل به . وذلك لا يكون الا باشتراطهم فيمن يدرسه ان يكون متضلعا في العلوم العربية قبل كل شيء . مطلعا اطلاعا حقيقيا على اسرار الشريعة الاسلامية . عالما بطرق التدريس والتأديب . له مشاركة كافية في العلوم التي يحتاجها انباء العصر الحاضر . ذا خلق عظيم . كي يتسنى له ان يغرس في دماغ التلميذ كلام الله العزيز ليهتدي به ويحمله حقا يفهم واجباته نحو ربه ونفسه والناس

اما رمي اطفالهم بين يدي معلمين (ان صحت هاته التسمية) لا يملكون من الفضائل والمعلومات ما يتسنى لهم ان يعيشوا بها كناس مع ناس فضلا عن مربين لاناس فان هذا مما يجعل المسلم متاخرا عن غيره في ميدان المقارعة وهو يحمل بين جنبه سر الحياة ونظام الكون واساس العمران

ولا يفهم القارئ من انتقادي هذا اني احرص المسلمين على عدم حفظ القرآن الكريم اذا لم توجد تلك الشروط المتقدمة فيمن يدرسه معاذ الله فهذا ما لا يدعوا اليه مسلم حسن اسلامه واراد بقلته خيرا اذ ان حملته في الصدور وتلاوته في المساجد ووجوده بين ظهرانينا خير من عدمه . فلا بد ان يلهننا الله يوما الى استخراج دقائقه والتمعن في اسراره اذا نحن لم نتركه جانبا ولم نبذله ظهريا .

ولكنني اذهب الى ان الاصلاح في طرق تدريسه بات محتما ان اردنا ان نجتني . الثمرة التي تسعد بها في الدنيا والاخرة

* (عودته الى وطنه) *

عاد محمد الى مسقط راسه يصحبه ابوه وليس له هم لطول عهده في القرية الا ان

يرى امه الشفوقة التي طالما سهرت عليه الليالي الطوال واستسهلت في سبيل سعادته كل صعب . ثم ارضه التي تربى فيها وتنعم بخيراتها حتى اشتد ساعده .

وصل الى تلك الربوع الجميلة التي يحن اليها من زمن بعيد ويفتتن بجبهها وهو في المهد صبيا فوجد كل شيء في مكانه لم يتغير فكانه لم يفارقها يوما ولم يتغرب عنها زمنا .

واما امه فلما سمعت بخبر قدمه طارلها فرحا وانجالت عنها سحب همومها واحزانها وألأن لها الدهر جانبها وابتسمت لها الايام بعد العبوسة وحمدت الله على ذلك .

ترقت وصوله بفراغ صبر فما هي الا عشية او ضحاها حتى كان بين يديها فظنت انها في حلم لذيذ سوف يكذبه الواقع لفرط شوقها اليه وحبها له فلما هدأ اضطرابها وسكن قلبها وعلمت ان ولدها العزيز حقيقة بين ايديها وان حلمها صادق غير كاذب انشدت اياتا قدزفها الترحيب بالمحبيب والشكوى من هم الماضي والآمه قنات :

عاد الحبيب ونغر الدهر مبتسم * وبات بحر الهوى بالحب يلتطم
يا حسننا ساعة قالوا الخليل اتى * من فضلها سحب الاكدار تنعدم
يا قرة العيسن يا نور الفؤاد ويا * من حبه وهواه . فتنة . الم
قاسيت بعدك ها لا تطاوقه * شم الجبال وتكبو دونه الهم
ولو جعلت جيوشا منه غازية * لدكت الارض والايام تنهزم
كم ليلة بت والاحزان تغمرني * من كل ناحية والقلب يضطرم
اذا ذكرتك سال الدمع منهمرا * لا سامح الله ان البين محتـرم
اليوم عدت فلا باس ولا حزن * فليرجع البشر والافراح والنعم
فقد مضى ما مضى سر الحياة غد * والهم بعد رجوع الخل ينصـرم

نعم مضى كل حزن وانصرم كل هم ورجعت المياه الى مجاريها واصبحت سعيدة بجانب ولدها الذي طالما ناحت عليه وهامت في كل واد من اجله وهو غائب (وهكذا
حوادث الدنيا كلها حلم يعقبه يقظة ويقظه يعقبها حلم . وهو ما وافراحها كسجاجة صيف عن قريب تقشع) .

سأل محمد عن جده المحبوب وما باله لم يخضر مع الاقارب فقل له انه التحق برحمة ربه منذ اربعة اشهر فحزن كثيرا لهذا النبأ العظيم وبكى ما شاء الله على ذلك الرجل الرحيم الذي قوم غصن صباة وسقاه بماء الحنان والحب . ثم تلا ما تيسر من القرآن الحكيم واهداه الى روحه الطاهر اعترافا بالجميل وقياماً ببعض ما اسدى اليه من تربية صالحة فيما مضى من الزمن .

كان جده يقول لاولاده واحفاده اني لا ارجو منكم بعد موتي الا قراءة سورة قرآنية من وقت لآخر تهديونها الي وانا بين يدي ربي او قصعة من ثريد تصدقون بها على الفقراء والمساكين فينير اجرها ظلمات قبري . - فانه كان رحمه الله في حياته يحب الثريد اكثر من كل طعام فاحب ان تطعم الناس ما يشتهي .

قضى ذلك اليوم مع امه في داره وفي الغد رد الزيارة الى اقاربه جميعا فتهللوا كلهم وحمدوا الله على سلامته ورؤيتهم له وكانوا يحبونه لانه كان يحبهم ولاهم لم يروا منه يوما بادرة قطع رحم او عقوق الوالدين .

وبعد ان زال عنه تعب السفر واستقر امره ادخله ابوه مـكتبا ليتم فيه حفظ القرآن وكان قد مل - اي محمد - تلك الطريقة السابقة الذكر بعد ما رأى نظام المدارس الحديثة - لا في حسن التعليم - ولكن في النظافة وسعة المكان وصفاء الهواء وبشاشه المعلمين وعذوبة اخلاقهم ونشاطهم في تادية واجبهـم والراحة بين الدروس وعد الضرب وحشية لا تسمح بها قوانين المدرسة الى غير ذلك مما يميل اليه الكبير فضلا عن الصغير

فكان كثيرا ما يترك المكتب - والمؤدب والحصير والعصا بجانب ويولي وجهه شطر حدائق ابيه وجناته لينشرح خاطره وينير فكره ويروض جسمه عوض ان يسجن نفسه في قفص الموت وهيكل العذاب .

مكث في بلاده سنة كاملة على هذا المنوال . نبوغ كامن لم توجد الايدي الماهرة لاستخراجه وحياة فنية لم تكن البتة صالحة لنموها وتوسيع دائرتها

* (سفره الثاني) *

عاد الى دار غربته فجرى لاهمه ما جرى لها في المرة الاولى الا انها تعودت الالم فلم يعد يؤثر فيها كثيرا فتدبرت بالصبر والرجوع الى الله في امر ولدها (اذ ادركت ان للحياة احكاما قاسية فلا بد للخضوع لها طوعا او كرها . فمن اراد ان يضادها بقوته صادمته وافقدته لذة العيش حتى يرجع ويستسلم وهو صاغر ذليل)

هنا تختصر حياة محمد اختصارا ويخرج جزء منها لا يستهان به من بين يديه في غير رقي ولا زيادة . واذا تذكر تلك الفترة التي سالت في محيط لا شيء تألم كثيرا لانه في ذلك الحين لم يزل يقطع القسم الذهبي من حياته الذي يجب ان يكون مملوء بالاعمال الجليلة التي يعود نفعها عليه فيما بعد حينما يصل الى القسم القضي ثم الرصاصي من عمره

اربعة اعوام كاملة قضاها في حفظ القرآن فلم ينل في النهاية الا سورا مرسومة في دماغه لا يفقه منها شيئا على انه لم يكن يحفظها كلها لما تقدم من اضطهاد المعلمين لتلاميذهم عند تلقين كلام الله لهم . فكان يحضر بجسمه ولكن قلبه غابت لانه لا يحب ان يسيطر عليه احد الا الله لما جبل عليه من حرية وعظمة نفس فلما اجبر وغاب على امره كانت النتيجة غير حسنة . لان القوة مهما كانت لا تجلب اليها القلوب الكبيرة

ولا تكسر حداثتها بل ما تزيدها الامضاء على التمرد والعصيان وان كانت تستولي على الجسم الفاني في بعض الاحيان .

ان محمدا كان يدرك فائدة القرآن ولزومه للمسلم ان اراد ان يكون مسلما حقيا حاملا لدستور دينه بين جنبيه . ولكن كره طريقة تدريسه كما يكره المرض والهوان . يدخل الصباح حجرة ضيقة مع نحو اربعين تلميذا بينما هي لا تسع اكثر من خمسة عشر تلميذا في المدارس النظامية . يظل مسجونا فيها امام مؤدبه من الساعة السابعة الى الزوال لا يخرج منها البتة الا لضرورة وربما في بعض الاحيان عدت الضرورة اكذوبة يريد ان يروح بها عن نفسه فيحرم من الخروج وهو في منتهى « الحصار » .

ثم يرجع في الساعة الثانية بعد الزوال فيظل هنالك جامدا على الحصير الى الساعة السادسة مساء وفي الليل قبل نومه يامر ابوه ان يقرأ - بصوت مرتفع - اربعة او خمسة احزاب ثم يضع عليه رقباء كالزبانية يتتبعون مواقع اقدامه خوف ان يترك في زاوية الاهال سورة من السور لما يبدو على وجهه من كره ما يفعل .

ولم يدخله ابوه المدارس الفرنسية ليتم معلوماته الاولى الا ابتعادا من التذبذب والحذلان الذي استولى على بعض الشبان من المسلمين حتى صاروا اعداء دينهم وملتهم ووطنهم حينما خاضوا ذلك العباب وهم فارغي الوطاب من الثقافة الاسلامية والاخلاق المحمدية - على منبعا افضل الصلاة وازكى التحيات - .

فقد اصاب فيما رأى وله الف حق فيما استنتج لانه مسلم صميم من الطراز العالي اراد ان يشب ابنه ووارث اسمه مثله لا يتزحزح قيد انملة عن الصراط المستقيم صراط الاسلام .

ان ابا محمد لا يكره العلم مهما كانت صبغته يحب الرقي يحب الاخذ باسباب الحياة ليس بجسامد ولا بمنعصب ولكنه ينفذ العلم الذي يكون سببا في سلب الايمان

من القلب فيترك صاحبه خرقه بالية وريشة في مهب الرياح تقذفها حيث شئت .
المرء يعيش بإيمانه واعتقاده فإذا فارقهما ضل واضل فليتنق الله أولئك الملاحدة
الذين يسعون في الأرض فسادا ويخربون بيوتهم بأيديهم وهم يعلمون انهم يسيئون صنعا
قاتلهم الله انى يوفكون

ايها المسلمون علموا اولادكم كل لغة زدوهم من كل علم لا تكرهوا الحياة المادية
ولا الثقافة الاجنبية اتركوهم يجتنون كل ما لذ وطاب لهم فان الجهل قد اضربنا وصيرنا
الى ما نحن فيه نعم الجهل ام كل مصيبة . ولكن انصح لكم وقلبي مملوء شفقة عليكم :
ان اغرسوا فيهم الاسلام قبل كل شيء وحبوا اليهم ابطاله ولقنوا لهم تعاليمه السامية
فبذلك تكونون شبيهة تعرف الفث من السمين وتصلح هاته الامة المنكوبة . اما بغير ما
اشرت فالخطب جليل والعاقبة وخيمة - لا قدر الله -

ومهما يكن من الامر فان محمدا في هاته المدة الطويلة قد تعلم شيئا هو راس ماله
وعباد دينه والنهائي عن الفحشاء والمنكر وركن من اركان الاسلام العظمى .. تعلم الصلاة
التي هي الصلة المتينة بين العبد وربّه والشفاعة فيه يوم لا ينفع مال ولا بنون .
تعلمها وقام بها احسن قيام مع كل ما يتعلق بها من اوامر ونواهي كالصوم وغيره وهو
مقتبط بهذا الواجب الجديد الذي ادخله في زمرة المحمديين العاملين باوامر دينهم
الحنيف . لا اولئك الذين يدعون انهم مسلمون وليس لهم نصيب في الاسلام الا قولهم
« اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله »

ان الاسلام ايها الناس ليس باللسان ولكنه بالقلب والجوارح الاسلام دين قول
وعمل لا دين تشدق وثرثرة . فمن وجد في نفسه بعدا عن العمل باوامر الدين
والاكتفاء بالاقتوال فليعلم ان الدين بريء منه وانه بعيد عنه بعد الكفر عن الايمان .
وما اهلكنا الله وضع ملكنا وساط عابنا من لا يرحمنا الا بالتهاون والتضييع .

ومما هالني كثيرا ما قرأته اخيرا في بعض الاسفار الجديدة ان فلانا - من عظماء
الشرق « كان رحمه الله يقوم بفريضة الصلاة ولا يؤخرها عن اوقاتها » فماكدت اتم
هاته الجملة حتى شعرت بالياس يدب في قلبي ديب الموت في الحياة . وقلت يا للعجب
من قوم مسلمين يصل بهم الحال الى ان يصير المصلى فيهم اعجوبة يجب ان يذكر عمله
هذا على صفحات الكتب ليراه ويعلمه الناس . ابلغ بالمسلمين الزيف الى درجة الافتخار
بالقيام بالواجب المفروض . اللهم ان هذا الخطب عظيم . اللهم انك لعادل في كسر شوكتنا
اللهم لا ترفع عنا نير الاستعمار حتى نرجع الى دين اجدادنا الفاتحين ونعمل به لوجهك
لا غير .

* (العودة الثانية الى وطنه) *

فلما سمع ابوه ان مدرسة قد انشئت في مسقط راسه - وهي الاولى والاخيرة الى
اليوم في تلك البلدة - طار اليها على جناح السرعة مع ابنه فادخله فيها . وكان - ابو محمد -
من السابقين الاولين في تنشيطها ماديا وادبيا لانه يراها حياة البلاد ومنبعها القياض
والمدرسة بسيطة جدا فيها يتعلم القرآن الكريم ومبادئ الفقه والتربية والادب
وكان يديرها استاذ فاضل ذو خلق طيبة يغلب عليه حسن الظن وصفاء الضمير حتى
ليخيل للناظر اليه او الجالس معه انه يحدث ملكا كريما طاهرا لا يعرف غشاش ولا رياء
ولا غدرا ولا نفاقا . ومحمد لم يزل ولن يزال يذكر اياديه البيضاء في تنقيف اخلاقه
وغرس روح الاسلام في قلبه .

كان محمد مثالا للاستقامة الخلقية فاحبه استاذة . ومثالا للذكاء والاعتناء بخسده
اقرانه ولكن بنشاطه وجدده ظهر عليهم وبزهم وهم متأخرون .

فلما رأى منه ابوه استعدادا يخوله الرقي المستمر مع ما اشار عليه بعض من
يرجون للبلاد خيرا ويصلحون في الارض انه لا بد من ارساله الى تونس للاعتراف من

مناهلها العذبة ومواردها الطيبة عزم على تنفيذ ما رأى فتوكل وسار.

سفرة الثالث

سافر محمد للمرة الثالثة يصحبه ابوه وترك لاهمه وذويه الحسرة والشكل لا كاول
وثاني مرة حيث كان طفلا صغيرا كالوردة الزاهية تشم ولا تحك ولكن كولد بار ظهرت
منه منافع وعلامات جليلة تبشر بتألق مستقبله فكانت تصبر قلبها وتسلي نفسها بعظم
المطلب وعلو الغاية وشرف المقصد
وصل تونس مهد العلم ومعمل الافكار فتركه ابوه (وهو لا يرجو من خاتمة
جهوده وتضحياته الا نفع بلاده ودينه) تحت مراقبة اساتذة كانوا يرأسون تلك البعثة
المباركة التي تقيم في تلك البلاد والتي ستكون كنواة لحياة بلاد الجزائر العزيزة ومجدها
المفقود بحول الله وقوته .

ادخل مدرسة حرة والنظام فيها لم يبلغ درجة عالية ان لم اقل متوسطة لان
مديرها كان صحفيا اكثر منه رقيب مدرسة وكثيرا ما كانت التلاميذ تقوض في بحر
السياسة الهائج على مرأى ومسمع منه وهو راض بل ربما شاركهم في حديثهم المتشعب
وانار لهم السبل والسياسة كما تعلمون ما دخلت في امر الا وافسدت

على انها - اي المدرسة - لا يغمط حقها من الوجهة الوطنية والدينية فانها كانت
مهددا ولها الفضل في تكوين عقلية محمد التي سيفور بها فيما بعد لخدمة امته المنكوبة .
انها شبيهة بناد ادبي فيه تتربى ملكة التفكير وفيه تغرس الاخلاق الفاضلة في
القلوب ولكنه عن القواعد العلمية الصحيحة خال ومن توسيع نطاق المدارك صفر .

على ان اساتذته المرشدين الخارجين عن المدرسة لم يزالوا يسهرون على مصالح
البعثة (ان محمدا لا يقدر ان يجازيهم على تلك الايام الجميلة التي غمروا بها ولكن الله
سيجازيهم على قدر مجهوداتهم وتضحياتهم احسن الجزاء والله لا يضيع اجر من احسن عملا)

خافوا من هذا التدهور الذي اصبحت به تلك المدرسة التي كانوا يجسبون انها معمل
قادر على تخريج الاكفاء ليصادموا الجهل ويحيوا مجد الابهاء . فلما خيبت آمالهم
اخرجوا منها كل من كان تحت رعايتهم - ولم تعمر تلك المدرسة بعدهم طويلا -
فادخلوهم في مدرسة اخرى احكم نظاما واوفر اعتناء بالتربية العلمية الصحيحة .
قضى محمد فيها نحو عامين كاملين يزاول من العربية والفرنسية ما راق وطاب
بجد واجتهاد جاعلا نصب عينيه رفع مستواه العلمي لترتفع بذلك امته وتقوز .

ولم يقتصر في تلك المدة بالدراسة فقط بل كان يعمر اوقات فراغه - وهي قليلة
وقصيرة جدا - بالتمرين على الكتابة والخطابة والشعر ويكثر من المطالعة في شتى الكتب
من شتى الفنون . يرى انه لا بد من تطبيق ما يقرأ من القواعد العامة على ما يوجد به
فكرة ويقذفه ضيرة .

ان القواعد المجردة ثقيلة على النفس وغير منتجة اذا لم يصحبها ما يطفئ
صعوبتها ويكسر حداثتها ويسيرها نحو غايتها التي جعلت وسيلة للوصول اليها . وكثير
من الناس يظنون ان اي خروج عن حدود الدراسة مضر بالتلميذ ومفسد لعقله .
ويعدون الكتابة والمطالعة من النوع الخارج عنها والذي يجب ان يجتنب وهذا
الاعتقاد فاسد من اصله لان الكتابة والمطالعة يزيدان في الفكر حدة وجرأة على قبول
ما يتلقاه من القواعد والدروس العلمية في اوانها . نعم لا يجب ان يبيل اليهما كل الميل
ولا ان يهجرهما بالمرّة لان الانقراط والتفريط في كل شيء مضر والاعتدال محمود ومفيد .
اما قراءة السياسة ومطالعة الروايات الغرامية فشر وفساد للتلميذ لان الاولى
تخرب العقل وتقطعه قبل نضوجه والثانية تهلك الدين وتحطم الاخلاق فالتنفير منها
وقت الدراسة من الواجب على الابهاء والمربين ان راموا لاولادهم خيرا وصلاحا .
اما التلميذ الذي لا يطالع ولا يفكر متكلا على قواعد الصرفة لا ينجح في ميادين

العمل عند دخوله معمعة الحياة . كما ان الحالي من القواعد المفروضة اللازمة لا يغوص في جلائل الاعمال ولا ينظر الا الى السطحيات من الامور

* * *

لم يكن محمد منتطعا في افكاره ولا معجبا بارائه ولا شاذا في اخلاقه ولا حسودا لاخوانه ولهذا تعددت اصدقاؤه وكثرت احباؤه . ولكنه في بعض الاحيان يغلي مرجه فيغضب ثم لا يلبث ان يثوب اليه رشده فيرجع ويخفض جناحه لان قلبه خال من داء الحقد والبغض .

وكان يرى ان المشاريع لا تقام الا بسعي الجماعات واما الافراد فمجهوداتهم محدودة لا تثمر في الغالب الا بعد العناء الشديد والزمن الطويل . هنا فكر هو واصدقاؤه في تاسيس جمعية ادبية وطنية تعمل لسعادة امتهم فكان الوافق رائدهم فاتككوا على الله ونظموها على طريقة الجمعيات الحديثة وكانوا يلقون فيها خطبا ومحاضرات كلها تجوم حول الوطنية والدين ويتحاورون مشافهة في مسائل تهم شعبهم المنكوب فصارت جلساتهم دماغ الامة المفكر وقلبها النابض . ولم يقتنعوا بما ذكر فاسسوا مكتبة للمطالعة العامة ثم جريدة تكتب باليد يحررها اعضاء الجمعية العاملين ويقدمونها لاخوانهم افراد البعثة العلمية في تلك الديار لتتبر لهم السبيل وتصلح حالهم وترشدهم الى واجباتهم الوطنية ولم تلبث ان ارتقت فانقلب مجله نصف شهرية مملوءة بالفوائد والنفايس . اما الجمعية فقد تقدمت في شهور قلائل تقدما شاسعا يعد غريبا بالنسبة لسير الجمعيات . وكان محمد يلعب دورا خطيرا في رقيها والسير بها في طريق الكمال الممكن حتى نعق غراب البين بينه وبين اصدقاؤه الذين يهتدي بهم في الليالي القاتمة ويرجع اليهم في المدهمات قفل راجعا الى وطنه العزيز وهو يفور احساسا وشعورا .



العودة الثالثة الى وطنه

وصل ميزاب فاستقبل بكل حفاوة واكرام من جميع الطبقات التي تتمنى ان يبعث الله فيهم من يفتح في وجههم باب الحياة والسعادة . فكان كلما نزل بين ظهرانيهم من ينتمي الى العلم ظنوه هو المنقذ لهم - بارادة الله - من شر ما هم عليه من الجهل الاسود والتفرق المبيد . صفة جميلة اتصف بها اهل ذلك الوطن الشهيد وهي الشعور بخرج الموقف والسعي في الخروج منه . ولكنهم في كثير من الاحيان لا يدومون على خططهم فيملون ويتقهقرون قبل الوصول الى غايتهم فيبدرون بذلك الياس والقنوط في قلب من يسير بهم فتومت المشاريع في مهدها وهم المسيبون . وفي بعض الاحيان يتبعون بعض الدجاجة المفسدين لغفلتهم وبلههم فيسوقونهم الى ما لا تحمد عقباه فيضيع اعمارهم ويفسد اعمالهم وهم مع ذلك لا يعذرون وامام الله يحاسبون

لم ينظر محمد هاته المرة الى جمال بلاده وصفاء هوائها وعذوبة مائها ولا الى اجسام اهلها وتغيير بنسائها بل نظر الى عوائده واخلاق قومه فتغيرت امامه الاحوال وشعر بالوحشة تسرب الى قلبه من طريق النفوس المجاورة له .

الزواج

مضت عليه مدة ليست بالطويلة وهو لا يعنيه امر احد ولا يدخل مدخلا عموما ما . وفي اثناء تلك الفترة زفت اليه شريكة حياته وانيسة خلواته فكانت - بعد اميه وامه - النجمة المتلألأة في افقه الذي راي فيه سحابة سوداء تتقدم اليه شيئا فشيئا تريد ان تكفره حتى لا يشعر بسعادة الوجود وهناء العيش ان قلبه لم يعد يخفق وحده بل بات بجانبه قلبا آخر يقسم معه افراح الحياة واتراحها فاحبه حبا صادقا ولكن لم ينسه ذلك الحب غايته المقدسة التي سعى اليها الا وهي طلب المجد والسعادة لوطنه الشهيد

ان محمدا لم يبلغ بعد ثمانتي عشرة سنة من عمره والعادة في ذلك الوطن ان الجل من
ابنائهم يقتنون قبل سن العشرين . وفي هاته العادة منفعة ومضرة اما الاولى فان الزواج
يحفظ الشاب من التهلك والانتقاد للنفس الامارة بالسوء والترامي في حضن العهر
والفساد . ثم هو يتعلم الاتكال على النفس منذ الحداثه لان والديه بعد ما يرمونه في
ذلك البحر الزاخر لا ينظرون اليه بالعين التي كانوا ينظرون بها اليه من قبل بل يتركونه
وشأنه . الا القليل منهم . يسبح ويقوص اما ان يحزن على الدرر والجواهر او يسي
لقمة في بطون الحيتان . وللثة ومناخ الاقليم ايضا حكم قاهر لا يغلب اذ ليس البلاد
الحارة في تأثيرها على المزاج البشري كالمعتدلة والباردة والفرق واضح لا يحتاج الى دليل
اما المضرة فلان الشاب قبل العشرين مهما كان حاله لم يقرر مصيره بعد ولم
يتجه الى ناحية من الحياة ثابتة لا ترحل . يقضي فيها ايامه الآتية فهو لم يزل كالريشة
الطائرة في مهب الرياح لا تستقر على حال فمن الحكمة الا توضع في عنقه تلك السلسلة
المحكمة الثقيلة وهو لا يشعر باستقرار وجوده وغاية مصيره . وعلى كل حال فلا لوم
اذ كل شيء قد سار في طريقه السوي فان اولئك القوم لا يهمهم الا امر دينهم فهم يضحون
كل شيء في سبيله فلا يمحسون ولا يقابلون ولا يقارنون الا بمكرسكوب الدين
فالدين له الدرجة الاولى في تسير سفينة حياتهم الادبية والمادية وما ضل من جعل
الدين دليلا .

ان الزواج في ذاته امر ضروري للبشر كالماء والهواء والنور وبه تتكون الجماعات
والامم ويزدهر العمران فلا غنى لامة عنه ما دامت تريد ان تحي عزيمة الجانب قوية
السلطان يرهب سطوتها القريب والبعيد

ان الشرائع السماوية والقوانين الوضعية كلها متفقة على وجوب الزواج وتخريم
الزنا ومن المعلوم ان الانسان لا يتكون الا من الانسان اذا فلا وجود ولا عمران

الا بالاقتران الشرعي . اما قرن العشرين قرن المصائب على الانسانية قرن التوحش
والفساد فقد انكراهاته الحقيقة وتعلمي عن هذا السبيل ولكن ما كل نكران يفيد ويحدي
فسوف يأتي الله بامر من عنده فتنقلب القضايا المعوجة ويسير كل شيء في صراطه المستقيم
اما انتم ايها المتبجحون بعدم ضرورة الزواج للبشر وتحبيذكم الزنا فقد فهمنا
نواياكم الخبيثة نحو الانسانية المعذبة وفهمنا كل ما يدور ويختلج في صدوركم من
شهوات واغراض كفوا فقد اطلعنا على امركم فلم يبق لنا الا ان نقول لكم كونوا قردة
وخنازير كونوا كلابا غاوية والتقطوا فرائسكم النجسة من بين مزابل المواخير واسلكوا
طريقا معوجا حتى يهلككم الله . فانكم لا تستحقون غير لعنة الله والملائكة والناس
اجمعين . اما نحن انصار الزواج والفضيلة فقد راينا فيها فعلا سعادة وهناك لا نجد لها
ابدا في غير مستلكننا الشريف والحمد لله . والشكر لله .

نحو العمل ! الى الاصلاح

نظر محمد الى المجتمع بعد تلك الفترة - العسيلة - وسير حركاته وسكناته من
نافذة البحث والتنقيب فوجد حاله سيئا جدا ومندرا بالخطر وسائرا في طريق غير
مشروع فهاهنا الامر وعلم ان البلاد جادة الى الفناء والزوال وان لا مناص من الوقوع
فيما يكرهه ويخشاه .

علم كل ذلك وادركه بعين بصيرته فلم يعد يشك فيما رأى واستنتج ولكن ما
العمل ؟ ايتقدم الى اصلاح ذلك المجتمع الهائج وهو الضعيف في كل شيء الا قلبه ؟
ام يتأخر ويكفني بالتأسف والبكاء وهو يرى ذلك تذلة وخيانة وسقوطا في النفس ؟
ما العمل ؟ اللهم هيء له من امره رشدا في هاته النكسة الضيقة وهاته الزاوية
الحادة تصادم الواجب والهوى فتشاجرا وتصارعا وكان صدره مبدانا لهما فهكت
قوته وسلبت راحته وانضب هناؤه فبات فريسة للاستقام وطعنة للالام . التفت يمينا

وشمالا فلم يجد عضدا ولا مساعدا لأن الناس في نومهم الكهفي يغطون فامتلا قلبه
غما وحزنا فذرفت عيناه عبرات حارة لا ضعفا في قلبه وسقوطا في إيمانه ولكن هو
الواجب يخطب والنفس تأبى . نعم بكى ترويحاً عن خاطره فلم يجد من يمسح
دموعه أو يعينه على امره فانشأ يقول :

لو كنت شخصا بليدا * اعمى البصيرة تائه
في الجهل اسعى واعدو * ورافلا في هوائه
له علي اباد * علي ثوب هنائه
لكنت اسعد حظا * من عالم بذكائه
إذا دعاني ضميري * نبذت صوت ندائه
او جاء عرضي ليقضي * قطعت جبل قضائه
لا اخدم الفكر الا * مقللا من بلائه
ولا اهز يتزاعا * لسفك ظهر دمائيه
ولا اجبر قرطا * سا مفسدا لبهائيه
ولا اطالع سفرا * مكذرا لصفائيه
ارى بلذا الكون سرا * يطوف حول فنائه
فيذهب الحزن عني * لانني من هبائه
اعيش فيه طائفا * بلا قيود ريبائه
فذاك خطي من العي * ش راضيا برخبائه

فها « علمت » فاني * مستعبد في بنائه
ولو كرهت فاني * اسير تحت لوائيه

ان شاء عشت ذليلا * او شاء فوق سمائه
فنزو المعارف يشقى * والبؤس طيء ردائه
ان التعاسة سم * ممزوجة بدمائه
الا لحى الله علما * يضرني بدوائه
لا سامح الله اني * بالعلم رهن شقائه
لا سامح الله اني * معذب ببقائه
فلو هجرته حينما * نجوت من برحائه
والعقل يقتل هما * من يهتدي بضائه
كم عالم مات غما * بصبره ووفائه
او عاش وهو كئيب * وفاقد لرجائه
وجاهل في نعيم * يحول في غلوائه
وهكذا سنة الله * تقتضي في ثرائه

بكى وندب حظه التعس ولكن هو حب الواجب متغفل في صدره فما لبث ان
قذفه الى ميدان الصراع وهو يقول : « اعمل واخطى » خير من اجهد واضيب !! » و « مهما
يلحقني من الضرر الشخصي في سبيل بلادي فاني اراه ضميلا بجانب المصلحة العامة !! »
خاض ذلك العباب والجو اقم من كل جانب فبدأ ينشر افكاره في المجتمعات
الخاصة كلما سنحت له فرصة ورأى المقام صالحا للقول . ثم صار يتدرج الى ان وليج
العامة منها فثبت زمنا يكافح مكافحة الابطال في سبيل امانى بلاده في كل مكان فكان
من نتيجة امره ما كان

دعى قومه الى الاصلاح العام في جميع فروع الحياة . اراد ادخال اشياء لازمة
وتغيير اشياء ضارة قد اكل عليها الدهر وشرب فنادى متكلا على الله :

اصلاح التعليم الديني

الدين حياة المسلم وروحه ومن المستحيل ان يعيش بدونه فكلما حاول تغييره غير الله ما به وخذله حتى يرجع ويتوب

نظر محمد الى التعليم الديني فوجده عقيما لا ينتج ووجد اهله متمسكين بالقشور دون اللباب فخاف ان يجر هذا الاهال سقوط الدين وكلمة الله فرغ عيرته بوجوب الاصلاح والتنظيم

يرى من الواجب ان تفتح مدارس نظامية مختصة لهذا الغرض تحت رعاية علماء الدين ونظرهم السامي . وهم يهتمون بها دون غيرهم ويعتنون بها حق العناية حتى يتخرج منها علماء اذكياء ومتشرعون فيوقعون بين الدين الخفيف والمدنية الصالحة العصرية ليصير المسلم سيد الناس كما كان ايام السلف الصالح

ورأى ان الجمود والتنطع يقضيان على الدين ان دام العلماء متمسكين بهما فذهما بكل ما لديه من بيان ونقد العلماء منهما ورفع الستار عما يجلبان من ضرر للامة وسعى في اقناع العلماء بضرورة الاصلاح والاسراع فيه . ومن جانب آخر حرص العامة على الوقوف باعتاب العلماء وطلب ذلك الاصلاح بكل الحاح ليزيدوا في الطنبور نعمة وفي الطلب قوة

المسجد

المسجد في البلد بكان القلب في الجسد فاذا صلح صلح البلد كانه واذا فسد فسد البلد كله . وله كما هو معلوم - انظمة وقوانين واحباس الى غير ذلك مما يتكون به هيكل عمارته . وهاته القوانين - ككل تشريع انساني - ليست صالحة لكل زمان ومكان اذ لابد من تنقيحها او تبديلها بغيرها اذا اقتضى الحال
رأى محمد فيما تقدم ما يحتاج الى الاصلاح والتنظيم ولم يعرج عليه لاسباب

قد يكون الخير فيها شرا . ولكنه من جانب آخر رأى من اللازم الدعوة الى الاصلاح فيما هو باد للعيان ولا يمكن السكوت عليه . بحال

ان ميزاب وطن اسلامي وعريق في اسلامه لا يهمله من شؤون الحياة الا الدين وما يتصرف منه ومن هنا كان لرؤساء الدين او « العزابة » السلطة على الشعب في تسيير اموره والاخذ بيده الى السعادتين . ولا ينازعهم في ذلك منازع داخلي او خارجي (وذلك بمقتضى معاهدة سنة ١٨٥٣ التي تجعل ميزاب تحت الحماية الفرنسية وتخوله استقلاله الداخلي المطلق) ولكن هؤلاء « العزابة » لم يقوموا بواجبهم المقدس الملقى على عاتقهم فقد فرطوا فيه واهاموا فضيعوا بذلك ثقة الامة وسطوة وحقا مشاعا كان يتمتع به ميزاب منذ القديم . وبات المسجد وهو قلب الامة ودماعها مسرحا واسع الاطراف للاغراض والشقاق والاهال فتقدم اليه غير الاكفاء فكانوا ضربة قاضية على وحدة الامة وسبعها الطيبة في الخارج

ان العامة وان كانت متصفة بالجهل فانها مع ذلك ميزان الشعب الذي لا يمكن ان يكذب ولا ان يخدع ابدا . فلما رأت - اي العامة - هذا التدهور وهذا الاختلال الذي الحق المسجد قالوا ان هذا لا يصدر الا من اناس لم يشموا للدين الصحيح ولا للعلم والاخلاق رائحة فنفروا منهم وتمردوا عليهم فعميت البلد وعم القحط الاكبر قحط النفوس لان منبعها الفياض قد انضب وغارت تحت الاغراض والاهواء

امام هاته النكبة قام محمد يدعو غير ما مرة الى الاصلاح وتدارك الخطب قبل استفحاله .

الوعظ والارشاد .

لم يصل اليها هذا الدين الخفيف الذي نستظل بظله اليوم والحمد لله الا من طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذان جنودان من جنود الله فمن نصرهما

نصرة الله ومن خذلهما خذله الله وهما لا يفوزان ولا ينتصران الا تحت لواء الوعظ والارشاد وبدونهما لا يتمكن الدين في قلوب الجماهير ولا يدوم في اوساطهم . ولهذا احب محمد ان تلقى دروس منتظمة في بيوت الله توافق حاجية الامة وتنير لها سبل الحياة المتشعبة وتحضها على التمسك بالدين القويم - الذي هو روح المسلم - والسير في مناهجه المستقيمة ويكون كل ذلك بأسلوب حكيم يذكر الخاص ويرشد العام . واحب ان يقوم بهذا العبء مرشدون ماهرون قد درسوا نفسية الامة وخباياها ثم هم لا يتكلمون في نصيحتهم وعظهم على ما حوته الكتب فيسردون على العامة ابوابا وفصولا قد سمعوها مرات عديدة حتى لم تعد تؤثر فيهم بل يجب ان يخترعوا اسلوبا وعبارات ومعاني تلائم عصرهم وبثتهم وقومهم لان الكتب التي في ايدينا اليوم - وان وجب ان تقتبس منها ما قاله السلف الصالح - قد وضعت لاناس قد اتى عليهم الدهر . ونحن الآن في عصر يخالف كل المخالفة ما سبقه . والسير مع الزمان عامل للفوز والنجاح ويتحتم على هؤلاء المرشدين ان يقوموا الاخلاق قبل كل شيء ليسنى لهم بذر ما شاءوا من الاصلاح في امد قصير وبغير كبير عناء . ولا ينسوا مع ذلك ان المرشد اذا لم يكن نظيف الذيل طاهر السريرة يقول ما يفعل ويفعل ما يقول لا يسمع كلامه ولا يعمل به ولو جاء ببيان قس واكتم وسحر هاروت وماروت لان العبرة بالقلب لا باللسان .

ويجب ان يجتنب ايضا في هذا السبيل النهي عن شيء لم يقتضه او لم يكن له وجود في الازمان والامر باشيء لا طاقة على الانسان القيام بها اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها فما بالك بتكليف العبد الضعيف

وليكن المرشد صبورا ثابت الايمان عاملا لله لا يتزعزع امام صدمات المبطلين .

العلوم الحديثة

راى من الواجب المفروض السير مع العصر جنباً لجنب في جميع الحالات والوجوه الصالحة خوفاً ان تتحطم امته الضعيفة تحت القوات التي يقذفها العالم الجديد في كل لحظة الى حيز الوجود .

اقتراح على الامة ان تؤسس جمعية ذات فروع في الوطن وفي بلدان المهجر يكون غرضها الوحيد جمع المال لارسال بعثات علمية متشعبة بالدين القويم الى مختلف العواصم سواء كانت اوربية ام اسلامية لتتعلم كل ما يقال انه علم فمن طب وحقوق ومكانيك ورياضيات الى علم الانارولغات العالم وتربية الحيوانات لا يستثنى من ذلك الا علم الزندقة والتذبذب والاحاد .

واراد ان تجعل لهم دور تحت مراقبة اناس ذوي فضيلة يحفظون اخلاقهم ودينهم وعوائدهم حتى اذا رجعوا الى بلادهم تفقوا اهلها ورفعوا مستواها بين الامم

الفلاحة

نظر الى الفلاح المسكين فوجدته في احط الدرجات ماديا وادبيا لان مهنته سائرة على سنة قديمة لم يدخلها اي تحسين يذكر رغم تغيير الزمان وكر الدهور . راى ذلك السقوط الفاحش فاحب اصلاح حاله ليسعد الشعب بسعادته لان الفلاح خادم الامة وسيدها ولا حياة لقوم بدونهم فهو العنصر الاول في تكوين الشخصيات المستقلة وما سعدت امة بشقاء فلاحها ابدا .

من هذا الذي شفق عليه ورثى لحاله واراد اصلاح امره ؟ هو ذلك الرجل التعس الذي يضل سنة كاملة يعمل في ارضه او جناته بكل قواه لا يعرف للراحة الحقيقية معنى ثم هو في آخر العام لا يجني من نتيجة عمله ما يسد ديونه المتراكمة في خلال السنة . وكل ما اقترضه لم يصرف منه الا القليل في ضروريات بيته بل

الجل اثناء في احياء نخيله وتنمية بقوله . وهكذا طول حياته يعمل ويكد لغير فائدة تذكر واذا مات ترك ارملة مسكينة وصبية صغارا لا يملكون قطميرا فيكشر لهم الدهر على انبائه فيعيشون عيشة الفقراء المعوزين او يموتون موة البؤساء المنكوبين ان الفلاحة في ميزاب سيئة من جميع الوجوه واهمها استخراج الماء من الآبار التي قد يبلغ عمقها في بعض الاحيان وفي بعض الاماكن مائة ذراع فما فوق . وطريقة استخراجها محفوفة بالتعاب التي لا يتحملها الا من رزق ارضا جرداء كميزاب لا يمكن العيش فيها الا بتلك المصاعب والمشاق . ولذلك هجر كثير من ابائنا الى ارض التل وتركوا ذلك الوطن يئن تحت اقبال جسيمة يدركها كل من نظر اليه بعين الشفقة والانصاف . وهاته الهجرة تضاعف كل سنة ويزداد خرقها اتساعا كل يوم ومن تم قلت اليد العاملة من ابنا البلاد الذين لهم عوائدهم واخلاصهم الخاصة فاحتل مكانهم جيش من العمال الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون لمساكنهم عليه من فساد الاخلاق والبعد عن التربية الدينية والجشع الزائد في النهب وتكدير الصفو العام تأملت البلاد من فسادهم فلم ير الناس طريقا للتخلص من شرهم لاستفحال امرهم وانتشارهم في طول البلاد وعرضها

ان تلك البلاد حقيقة محتاجة الى اليد العاملة وانها في ازمة شديدة من تلك الوجهة . ولكن كل فرج يحل هاته المسألة الخطيرة ويكون السبب في فساد الاخلاق وتحطيم الدين وتكدير الامن فلا نراه فرجا وحلا بل سيرا نحو اضمحلال الشخصية وخراب البلاد

امام هذا الخطر الداهم دعى قومه الى اصلاح الفلاحة ترقيعا لخرق الفساد . فاقترح على الاغنياء ان يكونوا شريكة وطنية صرفة لا دخل للاجنبي فيها البتة تكون غايتها حفر الابار الاتوازية واحياء الارض الميتة من مياهها الغزيرة حتى

يرجع المهاجرون ويجذون ارضا صالحة للفلاحة وكثرا للثروة فبذلك تحفظ البلاد من كل فساد . اما بغير هذا فالويل كل الويل للمستقبل القريب .

التجارة

التجارة منبع الثروة في كل شعب ولا يمكن لامة ان تستقبل بدون ترقية تجارتها الا ترى ان الحروب القائمة في الدنيا جلها واعظمها في سبيل حماية التجارة والتفوق فيها . وان الحرب الحقيقي لتكوين الشعوب الحرة هو حرب الاقتصاد التضروس

ان محمدا لم يدع الى قلب التجارة الحالية وتبديلها بغيرها كما هو الشأن في الممالك الراقية بل دعى قومه الى التحسين فقط لان جلهم ان لم اقل كلهم لم يزالوا يجهلون فنون الاقتصاد واساليبه الواسعة . دعاهم الى انشاء الشريكات التعاونية وتأسيس الجمعيات لحماية مصالحهم وتحديد الاسعار رققا بالضعيف ودفعا للمنافسة المضرة . واتباع القوانين المسطرة حتى لا ينشأ اي اختلال . وانشاء جريدة عربية تتبع حركات الاقتصاد في العالم ليكون التاجر على بصيرة من امره عند هبوط وارتفاع الاسعار والاستفادة من سيرة الغير . وشراء البضائع من مصانعها بدون واسطة . الى غير ذلك من سائط فن التجارة .

اما من جهة الاخلاق فلم ير في الحالية الاخذة بزمام التجارة في التل ما يسره فان الشبان منهم كاد يقضي عليهم زخرف المدنية وبهرجتها فقد ضيعوا كل خلق طيب وكل تقوى حملوها معهم من تربة اجسادهم فعوض ان يكونوا مرشدين ناهين عن المنكر آمرين بالمعروف ونواة اصلاح في تلك الاراضي الشاسعة كما يامرهم الاسلام والواجب كانوا ويا لالاسف في كثير من الاماكن معونة للفساد على فساد وجروثة للتهتك المخرب .

فيا ايها الشبان ان كنتم تظنون ان المدينة فيما تقتربونه وان التدبير همجية ورجوع الى القرون الوسطى كما يقولون فان ظنكم هذا تكذيبه الادلة العقلية والنقلية ويؤيده الهوى والشيطان وان كان السيل العشري نبي قد طمى عليكم وانتم غافلون فانتبهوا ونجوا انفسكم قبل ان يقذفكم في بحر لا يعلم الله فقرة فتندمون ندامة فرعون ولات حين مندم

ايها الشبان ان نصيحتي لكم خالصة وما اردت بها الا ترقيةكم والسير بكم في طريق الفلاح . اعلموا ان لكم اعمالا جساما وانكم مسؤولون عنها امام الله والعالم اذا اهلتموها . من منكم ينكر انه مسلم ؟ من منكم ينكر انه يجب بلادة ؟ من منكم ينكر ان له مجدا قديما ؟ من منكم ينكر ان حالنا الراهنة في منتهى التعاسة والسقوط ؟ كل منكم يعترف ويقر بذلك فان لم يكن بلسانه فيجوارحه اذا فلماذا هذا الذهول وهذا التقاعس بل هاته الموت .

ايها الشبان ان طلب المجد والسيادة مخالف لما ارى ؟ فكم نواكيا كانت اجدادكم والا رحمة الله عليكم .

بئس هذا كان محمد يرشد قومه ويدعوهم الى الاصلاح بكل هدوء وسكينة وحكمة .

الصناعة

ان الصناعة التي هي ام التجارة وبنيت الفلاحة ضئيلة جدا في ذلك الوطن القاحل ومما يذكر رغم قدم طريقته نسج الصوف الذي هو الصناعة الوحيدة التي يصح ان يقال انها منتشرة في البلاد يتغاطها الربيع والوضع والفقير والغني في كل دار من دور البلاد منسج عتيق تدبره المرأة وحدها لا دخل للرجل فيه ولكن مدخول هذا العمل ضعيف جدا وربحه ضئيل لا يساوي اتعابها رغم

الاتقان والاجادة . واهم ما يفتخر به هذا المنسج العتيق الزرابي الجميلة التي ذاعت شهرتها في العالم بفضل السياحين الذين يقدررون للصناعة والفنون الجميلة حقها . احب محمد ان تنشط تلك الصناعة باقامة معرض عام في كل سنة فيه تعرض جميع انواع الانسجة الوطنية وينال الفائزون جوائز مختلفة تكون لهم عونا وتنشيطا على عملهم فبذلك يتقدم المتأخر ويزيد المتقدم اتقاناً ثم اراد ان تشتغل اليد الفقيرة العاطلة بانشاء معمل واسع الاطراف للنسيج تعمل فيه النساء الفقيرات اللواتي فقدن كل مساعد وبتن عرضة للمصائب والاعطال

* * *

دعى الى كل اصلاح واحب كل خير ووقف في وجه الجمود كالصخرة العاتية وحرك الهمم الخاملة وجاهد في الله حق جهادة عامين كاملين . وفي الختام اجابه لسان حال الامة : « لستنا نفقه كثيرا مما تقول فاذهب انت واصلاحك الى امة غيرنا اما نحن ففي بجو حة العيش لا نطلب منك الا الصمت وعدم تكديز راحتنا . اذ ما بال من سبقك لم يقل شيئا مما تقول ام انك وحدك شعرت وغيرك ميت الاحساس . اسكن ففي السكون راحة !!! » هكذا ختمت مجهوداته وهكذا يلاقي كل عظيم في بداية امرة وهكذا يكون الصبر الجميل !!!

امام هاته الحجة الكبرى بات محمد ينشد بكل كثابة والياس ملء جوانبه : دعوت قومي الى الاصلاح فامتنعوا * وقد دروا انه حق فما خضعوا لا ينصتون لقول جاء معتبرا * لانهم في مروج الكبر قد رتعوا يسكون حالهم من شر نكبتهم * وان اتاهم مواس منهم اضطجعوا قد قبط الله فيهم من يحق له * ان يقتدى فاستخفوا فما انتفعوا يسعون بالجهل عكسا في مقاصدهم * ويخربون ولا يدرون ما صنعوا

كانهم وعصير الجهل يخذلهم * قوم سكارى على الاعتبار قد صرعوا
نفوسهم في مهاوي الذل غائرة * لا يطلبون حياة ولا طمعا
ويفهمون بان الدين منحصر * في صومهم وزكاة او اذار كعوا
تراهم في الرخا اسدا غطارفة * ان حل خطب على اعقابهم رجعوا
لا ببارك الله في قول بلا عمل * فانهم بحديث الليل قد ولعوا
قد غيروا في كثير من محاسنهم * فقير الله عنهم كلما ابتدعوا

* * *

كم ليلة بتها والله يشهد لي * مفكرا في مصير القوم اذ هجعوا
لا يطرق النوم جفني ابتغي لهم * مجدا ولست بذل العيش اقتنع
تري يراعي على القرطاس معتكفا * يذود عن حوضهم حينما ويخترع
اذا مضى الليل وانجالت كتائبه * واقبل الصبح بالانوار يجتمع
اصبح فيهم بصوت عز قائله * الا حياة بها في الناس نرتفع
فمزقوا الجهل وانجوا من مخالفه * فالجهل بالعلم والتفكير ينقطع
فحيثما كنتم ولوا وجوهكم * وجهكم كمشط شمس العلم واندفعوا
لا تفتشوا طالبين المجد انصحكم * فالمرء قهرا على ما هم ينطبع
كررت قولي مرارا غير مقتنع * بخطبة او شعر او بما يسع
ولا وسيلة الا جئت اعرضها * عليهم كي تنجيهم اذا فزعوا
فظن جهلا بانني لست صادقهم * فما افادهم قولي ولا سمعوا
على انه لم تكن الحية وحدها نصيبه بل قد رموه بالطين والتهور وطلب
المستحيل والوقاحة والتخليط وآخر سهم في الكنانة قولهم انه يطلب الشهرة لا غير
وهنا راي العزلة اقوم والسكوت اسلم . ولسان حاله يقول :

راوني انادي بالنهوض وانني * الح عليهم في الحديث مطولا
فظنوا بانني جئت طالب شهرة * لكي يصنعوا لي في الكواكب هيكلا
ولم يعرفوا قلبي ونفسي وهمتي * وانني ارى ما لا يرون تعقلا
خلقت وفي نفسي ثلاث فضائل * اياه وصدق والطموح الى العلا
فلا بارك الرحمان في العلم ان اتى * الي ولم اسلك طريقا موصلا
ولا عظمت نفسي ولا عز شانها * اذا انا لم ارفع فعالي تجملا
ولا بات قلبي في المكارم راتعا * اذا لم يكن بالنايات محجلا
ارى همتي شرا علي ولعنة * اذا هي لم ترفع من المجد منزلا
فتلك خصال صيرتني مطالبا * لحق بلاد بات حقا معطلا
اشد عليها بالنواجذ جازما * بان حياتي بعدهن من البلا
فلا انتني والله والقبر فاغر * اذا دام شعبي بالهوان مكبلا
نعم يحق له ان يرفع فعاله تجملا وهو القائل :

ولي همة والله يعلم انها * ترى الذل موتا والخنوع غلولا
تسامت فرامت كل عز وسودد * فامسيت مما تبغيه ضيلا
تريد حياة تبلا الكون رعبة * وتترك مجدا للبلاد اتيلا
تري في نفوس الناس شرا مجسما * فتصفح صفحا عن خصومي جيلا
وكل فتى مثلي يروم سعادة * فلا بد يوما ان ينال جزيلا
تمت المرحلة الاولى باختصار ويليه ان شاء الله المرحلة الثانية وهي اوسع دائرة
والحمد لله اولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

